

التواصل الاجتماعي بين وادي سوف وتونس د.حميدي أبو بكر الصديق جامعة المسيلة

مقدمة

هناك عدة عوامل ساهمت في تمتين التواصل بين القطرين الجزائري والتونسي وعلى رأسها التواصل البشري وما ينجر عنه من مزايا أخرى ، وأهم عصب في هذا التواصل البشري هو الموجة الكبيرة من المهاجرين لمنطقة واد سوف في تونس وما فرضته من تواجد وانتشار وتعدد المهن والحرف في تونس منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين وما نتج عن ذلك من تواصل ثقافي واجتماعي وفكري وسياسي جعلهم في عدة محطات تاريخية يتبوؤون **المقام الأول** في تونس. فهم الذين شكلوا ثلث النزلاء بمدينة توزر ، وفرضت قبيلة **طرود** التي لها امتداد في واد سوف وجودا في إقليم **مجردة السفلي** منذ **1860** بأعداد فاقت **250** فردا ، وكانت العاصمة **تونس** ممثلة لكل جهات سوف (**تاغزوت ، الزقم ، الكوينين ، المصاعبة ، طرود**) . وكونوا أكبر جالية مقارنة بكل الجاليات الأجنبية أو حتى مقارنة ببقية الولايات الجزائرية في العاصمة تونس في **1921** فبلغوا **2668** نسمة وكانت الموجة البشرية الأكثر في منتصف الثلاثينات من القرن العشرين .

وفي مجال **المهن** فقد تعددت نشاطاتهم من موزعي **الماء الشروب** ، إلى العمل في **مناجم الفوسفات** **بقفصة** ، إلى **المهن الحرة والتجارة** وعمال **يوميين** ، وشكلت الجالية **الطلابية** في القرن العشرين إضافة جديدة في رصيد الأصول السوفية بتونس ومساهمة النخبة المتعلمة في مسار الحركة الوطنية وبها اكتمل المشهد السوفي في ربط التواصل البشري والاجتماعي والثقافي بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس . وقبل ذلك نستقرأ الوضع العام للجالية الجزائرية هناك.

أوضاع المهاجرين الجزائريين بتونس

لقد كانت حركة الأفراد والقبائل بين الحدود الجزائرية والتونسية طبيعية في العهد العثماني ونظمتها اتفاقية 1628 التي نصت على أن الولاء يصبح لصالح الإيالة التي يقيم فيها ولكن بعد الاحتلال ألغي العمل بها وصار الحصول على الرخصة من السلطة الفرنسية حتى يكون له حق الحماية هناك ، وبالتالي فالمهاجرون الجزائريون إلى تونس عليهم التوجه إلى القنصلية الفرنسية بها للتأشير عليها . وبعد صدور القرار المشيخي في 1865/07/14 أصبح الجزائريون الذين يقيمون في تونس قبل 1830 عليهم إثبات حجة بأصولهم الجزائرية لدى القنصلية الفرنسية ، وصنف الجميع كرعايا فرنسيين ليستفيدوا من الحماية هناك ، كما ظهر في هذه المرحلة مصطلح الجنسية¹ ، وكان الهدف الفرنسي كله من هذه العملية هو الإحصاء الكامل للمهاجرين وضمهم أكبر عدد من الجزائريين الموالين لفرنسا بتونس وعدم مساهمتهم في أي عمل عدائي ضدها .

وقيل أن فرنسا لجأت في وقت مبكر إلى اشتراط رخصة السفر من الجزائريين الراغبين في الهجرة نحو تونس وكان هناك تنسيق كبير بينها وبين قنصلها بتونس حول هذا الموضوع ، وأوردت بعض المصادر أن الباي محمد الصادق 1855_ 1859 خصص أراضي للجزائريين، وفي الحقيقة أنهم كانوا حينها يشعرون أن وطنيتهم الإسلامية تتعدى حدود الجزائر وهم في دار الإسلام وبالتالي فوجودهم في تونس أمر طبيعي وخاصة في زمن الاضطهاد الاستعماري ويبدو أن الباي محمد الصادق بادلهم نفس الشعور وتقهم وضعهم .ولكن الظاهر كان يتلقى ضغوطا كبيرة من فرنسا التي تعتبر كل الجزائريين رعايا سواء في تونس أو الجزائر وطلبت منه الاعتراف بالوضع الجديد لهم بعد قانون 1865 وبذلك أصدر أمرا عليا في سبتمبر من نفس السنة يعتبرهم رعايا فرنسيين وقام بمراسلة ممثل الإمبراطور يشعره بهذا الإجراء الذي شمل الفئة الجزائرية فقط وقيل أنه ابتداء من 1869 تغير الوصع وطلب منهم تسجيل أنفسهم بالقنصلية للحصول على الجنسية الفرنسية² ، وكان الهدف واضحا من خلال التخلي عن كل الشروط وفسح المجال أمام كل طالب للجنسية سواء كانوا رعايا أو محميين من أجل تدعيم الهيمنة الفرنسية على الجزائريين الفارين للخارج حتى أنه استفاد من ذلك غير الجزائريين كما أشار إلى ذلك المقيم العام الفرنسية الفرنسية بالنيابة بأن عددا من الإسرائيليين تحصلوا على الجنسية على

¹ - أحمد بن جابو ، أوضاع الجالية الجزائرية بتونس ما بين 1830 . 1881 ، حوليات التاريخ والجغرافيا ، ع 06 ، ديسمبر 2012 ، المدرسة العليا

للأساتذة ، ص 234 .

² . نفسه ، ص 234 .

أساس أنهم توافدوا لتونس منذ مدة¹ والمؤكد أن السلطات التونسية تعرضت للتهديد بالقوة من قبل فرنسا لفرض الواقع الجديد .

وفي عهد الوزير خير الدين أصدر قرارا يشعر فيه الجزائريين المقيمين بتونس أو الوافدين عليها أن يخبروا بين الجنسية الفرنسية أو التونسية وفي الحالة الأولى فإنه يعفى من الضريبة ، ولكن هذا الإجراء أغضب السلطات الفرنسية على أساس أنه يفتح باب الهجرة غير الشرعية والفرار من المحاكم والمتابعات ولذلك تدخل روستون Rouston لدى خير الدين وطلب منه أن تحدد مدة 03 سنوات ليختاروا إحدى الجنسيتين ، واعتبر أن معظم الجزائريين البالغ عددهم حوالي 100000 نسمة بتونس قد هاجروا رفضا للاحتلال ولم يتجنس منهم إلا المئات² . وهي إحصائيات مبالغ فيها ولم يبلغ هذا الرقم حتى في آخر فترة لأنه في مصدر آخر وحسب ROUSTON نفسه فإن عدد الجزائريين بتونس في 14 أوت 1876 بلغ 16600. وهي سياسة كان الغرض منها التمهيد والتبرير لاحتلال تونس من خلال الإكثار من تعداد الجزائريين وخلق مشكلة الرعايا والهروب من طائلة المحاكم الفرنسية وخلق معارضة جزائرية هناك .وتوصل الأمر بينها إلى تحديد مدة الاختيار بسنتين أما حركة القبائل فهي تخضع للاتفاق مع فرنسا

وشكل المهاجرون الجزائريون بتونس في النصف الأول من القرن العشرين نسبة عالية مقارنة ببقية المهاجرين بحيث أنه كان عدد سكان تونس حينها 2335256 مواطن في الوقت الذي كان فيه عدد الجزائريين هناك 23907، وهم بهذا العدد يشكلون أكثر من نصف عدد كل المهاجرين المغاربة وتمركزوا في الجريد التونسي وفي التل الأعلى وفي الشمال وفي عين دراهم في الحدود الشمالية الغربية³.

أما في العاصمة التونسية فقد وجدت كل الجهات :الجزائريون والمغاربة والطرابلسيين ، وكانت أهم المناطق الجزائرية المهاجر منها هي : قسنطينة ، الجزائر ، وهران ، زاوأة ، بني ميزاب ، واد سوف .

¹ نفسه أحمد بن جابو، مرجع سابق، ص 235 .

² نفسه ، ص 238 .

³ ABDELKRIM MEJRI , " Être Magrébin musulman" immerge en Tunisie depuis la conquête de l'Algérie jusqu' a la veille de la deuxième guerre mondiale 1830 _ 1937 , mediterraneane world xx, published by the mediterranean studies group , Tokyo , 1010, p 72-73 .

هجرة السوافة إلى تونس :

في نهاية القرن التاسع عشر قيل أن العمالة في المناجم والسكك الحديدية في قفصة يغلب عليها الأجانب وخاصة من منطقة القبائل الجزائرية ومناطق واد سوف¹ . أما بعد الحرب العالمية الأولى فقد غادر معظم القبائليين تونس متوجهين نحو فرنسا التي كانت في حاجة ماسة لليد العاملة بينما بقي السوافة يشكلون الأغلبية هناك .

وفي 1863 وجد حوالي 06 سوافة في مدينة ماطر² وكان يطلق على الوافدين من المناطق الغربية عامة بالغرابة أي بما فيهم الجزائريون وهناك من تم تنزيلهم بدفتر الإعانة لكن تم إعفاءهم فيما بعد مثل النزلاء بمدينة توزر من أهل سوف حيث كان عددهم 185 نسمة وهو ما يشكل حوالي 30 % (613) من جملة النزلاء . وبعد صدور الإذن باستخلاص الإعانة في 1862 تم طرح سكان البرانية بتوزر من .

وإذ كان أعفاء النزلاء بمدينة بتونس من دفع الإعانة وهي في شكل ضريبة فذلك لكونهم يؤدونها لشيخ العرش الأصلي ، أما النزلاء من أهل سوف فقد تم طرحهم أو إعفاؤهم من هذا الأمر نتيجة لوضعيتهم ، كما أن معظمهم من الذكور أي عمالة وافدة دون عائلات في هذه المرحلة: 185 من الرجال³ .

أهم القبائل السوفية المتواجدة بتونس:.

تذكر المصادر أن قبيلة طرود التي كانت مستقرة في وادي سوف وجد من أبنائها البالغين في 1860 - 1865 ما يقارب 240 إلى 250 فرد وهو عرش تابع جغرافيا لإيالة الجزائر سابقا ولكنه ماليا للسلطة المركزية بتونس ، وتوافدوا بشكل كبير واستقر معظمهم في إقليم مجردة السفلي وصاروا في الغالب في انقطاع عن موطنهم الأصلي في منتصف القرن التاسع عشر .

¹ ABDELKRIM MEJRI ,op cit p 77.

² . عيد الكريم الماجري ، هجرة الجزائريين والطرابلسيين والمغاربة الجواننة إلى تونس ، 1831 - 1937 ، ط 1 ، تونس ، 2010 ، ص 117 .

³ . نفسه ، ص 125.

وحول عدد المهاجرين نحو تونس هناك تضارب كبير في الإحصائيات ، فحسب القنصل الفرنسي ROUSTON كما أوردنا سابقا فإن عدد الجزائريين بتونس في 14 أوت 1876 بلغ 16600 فإن عدد السوافة والنمامشة معا : توقرت ، والواحاتبلغ 200 شخص¹ .

ويشير نفس المصدر الفرنسي أن معظم مناطق وادي سوف كانت ممثلة في تونس : تاغزوت ، الزقم ، الكوينين ، المصاعبة ، وطرود .² وأغلب الوافدين كانوا يتوجهوا إلى العاصمة تونس ، ولم يكن لهم اختصاص معين ، بل كانوا في الغالب عمال يوميين ولكن ليس لهم اختصاص معين مثل الفئات الأخرى التي عرفت بحرف معينة ، ورغم ذلك فلم تصرح فرنسا إلا ب 6900 جزائري بتونس في 1876 وربما أن معظم النازحين لم يكونوا يصرحون بخروجهم للسلطات الفرنسية .

وعندما أسست شركة الفسفات بقفصة استقدمت الكثير من العمال القبائليين والسوافة وخاصة حين ألغيت رخصة السفر للخروج من الجزائر في 1914 وهو ما رفع عدد الجزائريين بتونس . ففي 1921 احتل السوافة المرتبة الأولى في مدينة تونس ب 2668 نسمة ثم بعدهم الوافدين من عنابة وتبسة وقسنطينة ب 2205 نسمة بمنطقة ورقلة 1127 والجزائر 1022 ن ووهران 680 ن وتوات 575 ن وبلاد ميزاب 395 ن .

وقد انخفض عدد السوافة في 1926 إلى 2431 ن والميزابية إلى 205 ن ويلاحظ هذا التراجع قد يكون لارتباط هذه المناطق بموطنهم الأصلي وأن هجرتهم معروفة بالذهاب والإياب وأن الميزابية أغلبهم ذكور كما أن السوافة معروف عنهم عودتهم الموسمية إلى واحاتهم ، وتبقى هذه الأرقام رهينة تصريح المعنيين بالخروج ومدى حزم المشايخ والمشرفين في تونس على دقة التعداد³ .

والملاحظ أن عدد الجزائريين عامة قد ارتفع بشكل مطرد في السنوات التالية حيث بلغوا سنة 1936 - 40816 نسمة⁴ . وتسير إحصائيات هذه السنة أن مدينة تونس احتضنت 9125 نسمة وافدة وخلالها قدم الكثير من السوافة إثر موجة هجرة زمن الأزمة الاقتصادية مما أثار حفيظة المسؤولين الفرنسيين الذين طالبوا

¹ - عبد الكريم الماجري ، مرجع سابق ، نفسه ، ص 129 .

² - نفسه ، ص 137 .

³ - عبد الكريم الماجري ، مرجع سابق ، ص 148 .

⁴ - نفسه ، ص 140 .

في عدة مناسبات وضع حد للهجرة السوفية وخاصة أن عملية التعداد أصبحت في هذه المرحلة أكثر دقة وصار للقائمين عليها من مشايخ وأعيان تونس أكثر خبرة.¹

وكان تركيزهم في عدة مناطق مثل توزر بنسبة الثلث من بين النزلاء بها ، وفرضت قبيلة طرود التي لها امتداد بواد سوف وجودا في إقليم مجردة السفلي منذ 1860 وبأعداد فاقت 250 فردا . وكانت العاصمة تونس ممثلة لكل جهات واد سوف (تاغزوت ، الزقم ، الكوينين ، المصاعبة ، طرود....)، وكانوا أول جالية جزائرية بتونس العاصمة سنة 1921 حيث بلغوا 2668 نسمة ، وكانت الموجة البشرية الأكثر تدفقا خلال منتصف الثلاثينات من القرن العشرين.

النشاط المهني لفئة السوافة بتونس

وفي مجال المهن فقد تعددت نشاطاتهن من موزعي الماء أو ما كان يطلق عليه القبراجي² والتي كانت صفة ملازمة للسوفي (Garbagie) وهي مهنة عرفوها في موطنهم الأصلي واحترفوها هناك ، ويبدو أن هذا النشاط مرتبط بالعمل الخيري أو ما يسمى بالسقاية وهي عادة موجودة بالمجتمع الجزائري ولا زالت في بعض المناطق إلى اليوم ، ولكن السوافة طوروها إلى نشاط مهني يسترزقون منه ويجلبون المياه للسكان وسقايتهم

وبعد اكتشاف الفسفات بمنطقة قفصة منذ 1884 شرعت فرنسا في التهيئة والتجهيز لاستغلاله ، وكان على مسافة كبيرة بين قفصة والحدود الجزائرية وفسحت المجال أمام الشركات الاستعمارية الاحتكارية للاستغلال واستولت على أراضي واسعة تابعة للمواطنين بدعوى أنها ملكية تابعة للدولة وهو ما شكل تدمرا كبيرا بين السكان وجعلهم يتمسكون بما بقي لهم من الأراضي لمزاولة نشاطهم الزراعي والرعي. كما كان التذمر من العمل المنتظم تحت سلطة المحتل ، مما جعلها تبحث عن أيدي عاملة من خارج البلاد من أوريبيين وجزائريين ومغاربة أو وليبيين وتونسيين من خارج منطقة المناجم . ونعتقد أن التنوع في اليد العاملة كانت له عدة أهداف أخرى منها توفير يد عاملة متخصصة ، وحاجة المناجم لأعداد كبيرة فاقت أحيانا سبعة آلاف عامل وعدم حصر العمال في جنسية واحدة قد تشكل نوع من الوحدة والقيام بإضرابات واضطرابات .

¹ . نفسه . ص 148 .

² . كلمة مشتقة من القرية المصنوعة من جلد الماعز وتربط لتصبح على شكل برميل أو دلو لتعبئة الماء .

ولهذه الظروف كانت مناطق وادي سوف وتبسة وبلاد القبائل المحاذية للحدود أولى المناطق التي انتقلت للعمل في مناجم الفوسفات تحت تأثير الحاجة ودعاية وتشجيع السلطات الفرنسية .

وقيل أن أهل شوف وتبسة وشوق أهراس منهم من كان يغادر المناجم لمدة سنة أو أكثر للعمل في الزراعة بموطنه الأصلي ثم يعود ، وكذلك قضية الانقطاع عن النشاط المنجمي في فصل الحرارة لقساوة ظروف العمل ، وكانت الإصابات بحوادث العمل كثيرة وعلى رأسهم الجزائريون بنسبة تفوق في الغالب 46% إضافة إلى التمييز الكبير بين العمال العرب والأوروبيين.¹

وكان العمال السوافة في آخر الترتيب المهني المنجمي كعمال معاونين وظلوا مرتبطين بالنشاط الفلاحي بموطنهم عكس بقية الجزائريين ، أما الأجور فكانت متدنية للعمال العرب عامة - مابين 1 و3 فرنكات لليوم فقط أما الأوروبي في بداية القرن العشرين فكانت ضعف ذلك تقريبا،² أما المحيط السكني فكان للأوروبيين حيهم الراقي الخاص ولبقية العرب أحياءهم المحيطة وكان للسوافة حيهم الخاص بهم³ .

كما أن العمال العرب بما فيهم السوافة كانوا يعانون الكثير من الأمراض كالجدري ، وأمراض العيون ، والسل ، والسعال الديكي ، والإسهال . كما أنهم لم يكونوا يتمتعوا بنفس الحقوق والتأمين والعلاج الذي يحظى به الأوروبيين . ومنهم من يتعرض لحوادث مميتة دون أخذ حقوقه كالأوربي . ولذلك من دون شك أن عمال وادي سوف كانوا ضمن الحركات الاحتجاجية والإضرابات من أجل رفع الأجور وتحسين ظروف العمل .

ونعتقد أن الوضعية الخاصة التي عاشها السوفي في مناجم الفوسفات بتونس لها مبررها من حيث أنه كان قريب من المنطقة ومنهم من كان متواجدا من قبل بتونس وبالتالي فهم بأعداد كبيرة استطاعوا أن يكونوا مجتمع صغير يأنسون فيه لبعضهم ويوفرون نوع من الحياة الاجتماعية السوفية المصغرة ومن خلالها يتم التواصل مع البلد الأم في الذهاب والإياب وإرسال الأموال لعائلاتهم وتبادل الأخبار حول شؤون وأحوال وادي سوف .

¹ - أحمد بن جابو ، " المهاجرون الجزائريون بمناجم قفصة بتونس " ، المصادر ، ع 22 السداسي الثاني ، 1010 ، المركز الوطني للدراسات والبحث في

الحركة الوطنية والثورة التحريرية ، ص ص 208 - 212 .

² - نفسه ، ص 219 .

³ - نفسه ، ص 222 .

لارتباط هؤلاء بمزاولتهم للزراعة الموسمية وتهيئة النخيل وجنيه ، وأن البعض منهم يتوجه للعمل في المناجم ليدعم مدخوله وخاصة في ظل الظروف الاستعمارية القاهرة . كما أن عامل القرب جعلهم يستمرون بأعداد كبيرة بعد الحرب العالمية على خلاف بقية الجزائريين وخاصة عمال منطقة القبائل .

إضافة إلى العمل في مناجم الفسفات بقفصة وغيرها من المدن التونسية كذلك مارسوا نشاط الصيرفة العمل في الموانئ و ممارسة المهن الحرة وعمال يومية إضافة إلى النشاطات التجارية . وذكرت بعض المصادر أنه نشبت أحيانا بينهم وبين عمال منطقة الجبس نزاعات وربما يعود إلى تنافس مهني دون شك .

وعموما نلاحظ أنهم نوعوا نشاطهم وتكيفوا مع احتياجات السكان وتأقلموا معهم وناقسوا أحيانا في وظائفهم والأکید أن هذا يعود بالدرجة الأولى إلى أعدادهم الكبيرة وبالتالي وجب عليهم التنوع في المهن والتكيف مع الواقع الجديد .

وإلى جانبهم كان يوجد بني ميزاب المختصون في الحمامات العامة سواء كملاك أو عمال، ولهم أمين خاص بهذه الحرفة ولهم سلطة تنظم المهنة ، كما وجد أبناء ورقلة كعمال في الفحم وجالية من منطقة توات تعمل في الحراسة للمؤسسات والأسواق والأملاك ونازعهم في ذلكم بعض المغاربة¹ .

وشكلت الجالية الطلابية في القرن العشرين إضافة جديدة في رصيد الأصول السوفية بتونس ومساهمة النخبة المتعلمة في مسار الحركة الوطنية وبها اكتمل المشهد السوفي في ربط التواصل البشري والاجتماعي والثقافي بين البلدين .

فهناك شريحة انتقلت لتونس بحثا عن العلم ثم استوطنت هناك ومنها من ساهم في ربط الاتصال وتوفير الظروف لغيره وهم يعدون بالعشرات وخاصة في القرن العشرين ونذكر منهم : ابراهيم السوفي - 1888 - 1934² .

¹ - ABDELKRIM MEJRI ,OP CIT, P 78.

² - عمار هلال ، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الاسلامية فيما بين القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين ، 14/3 هـ ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 ، ص 83 .

وكذلك عبد العزيز بن محمد الهاشمي بن ابراهيم ، الذي كان جده ابراهيم قد انتقل لتونس وأنجب محمد هناك ، ولما كبر هذا الأخير عاد للجزائر واستقر بواد سوف وأسس زاوية عميش وأنجب عبد العزيز في 1898 والتحق بالزيتونة في 1913 ودرس بها عشر سنوات وتخرج من الزيتونة بشهادة التطويع وبقيت صلته مع قيادات الحركة الوطنية التونسية وبقي يرأسهم ويتعاطف معهم في المحن التي ألمت بهم¹ ، وبعد وفاة والده تولى عبد العزيز مشيخة الزاوية القادرية. وكان لهذه العائلة تواصل وعلاقات كبيرة مع تونس بدون شك نظرا لمشيختهم في الطريقة القادرية على يد جده في نفطة بتونس ثم أولاده من بعده في وادي سوف ، وما لهذه الطريقة من امتداد في الجنوب الشرقي الجزائري والجنوب التونسي ، أما في الجزائر فكانت له مواقف معادية للاحتلال الفرنسي فاعتقلته سنة 1937 . فهذه الشخصية التي ورثت الزعامة على الطريقة ربما كان احتكاكها بعلماء الزيتونة وحركة النهضة هناك والحراك السياسي الذي عاصره في تونس(1913-1923) قد أثر في عقيدته وتوجهاته الإصلاحية الجديدة .

ومن بين قدموا لتونس بغرض التعلم أيضا عبد القادر الياجوري الذي درس في الزيتونة وتحصل سنة 1394 على شهادة التطويع وعاد لواد سوف حيث مارس التدريس بمنطقة قمار ثم سجنته السلطات الاستعمارية ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية في عدة مدن من الغرب الجزائري.²

وهناك شخصية حمزة بوكوشة التي تخرجت من الزيتونة أيضا³ وبقيت على صلة مع القضايا التونسية والشخصيات الإصلاحية .

¹ - عمار هلال ، "من الشخصيات الجزائرية التي لم ينفذ عنها الغبار بعد . الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي " **الثقافة** ، ع 95 ، ص 06 ، محرم صفر 1407 ، سبتمبر / أكتوبر 1986 ، ص ص 273 ، 290.

² - أحمد صاري ، شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر ، المطبعة العربي ، الجزائر ، 2004 ، ص 49 .

³ - حمزة بوكوشة من مواليد وادي سوف سنة 1908 وعضو بجمعية العلماء وتوفي في 1964. للمزيد أنظر : نفس المرجع السابق .